الفصل الثامن

الفلسفة في العصر الروماني

الجزء الثاني

لا يمكننا معالجة كل الفلاسفة الذين ظهروا في هذا العصر وسأكتفي بدراسة أهم المواضيع والمسائل الفلسفية التي عالجها القديس أغوسطينس أو أغوسطين ممهدًا لذلك بذكر أهم ما اشتهر به أفلوطين.

أفلوطين (205 - 270)

ولد أفلوطين في مصر وتعلم في الإسكندرية على يد أمونيوس سكاس. رحل مع الجيش الروماني إلى بلاد فارس ليتعلم ديانتها ولكن عاد منها إلى العراق ومن ثم ذهب إلى أنطاكيا ثم إلى روما. لم يكتب شيئًا إلا بعد الخمسين من عمره وكان مجموعة رسائل. وبعد وفاته جمعها تلميذه فرفوريوس، وبوبها في 6 أقسام، كل قسم مؤلف من 9 رسائل سمّيت التاسوعات.

ثالوث أفلوطين: الواحد The One، العقل Nous، والروح Soul

يعتقد أفلوطين بأن الموجودات هي ما هي عليه بالوحدة. فمثلًا الجيش والجوقة والقطيع والبيت والسفينة كلها لا توجد إلا بالوحدة. التعدد

انقسام. والصحة توجد حين توجد وحدة الانسجام بين الجسد والنفس. وعلة الوحدة في الموجود الأدنى هي تأمله المبدأ الأعلى له. فإن كل موجود إنما يحصل على صورته بتأمله مثاله المعقول والطبيعة. وهذا التأمل هو أساس نظرية الفيض عنده.

القديس أغوسطين (354 - 430)

ولد في أفريقيا الشمالية من أب وثني وأم مسيحية أصبحت في ما بعد قديسة. تعلم البيان وافتتح مدرسة لتعليم البلاغة والخطابة. قرأ شيشرون وتأثر ببلاغته وعلمه وفضيلته. كما قرأ الكتاب المقدس وكتب المانوية وكان محبًا للحياة واللهو والمرح.

اعتناقه المسيحية.

ذهب أغوسطين إلى روما ليكمل علومه ومن ثم إلى ميلان ليتخصص في علم البيان وهناك تعرف على القديس أمبروز Ambroz رئيس أساقفة ميلان الذي استهواه حديثه وتدينه. وكان على علم بفلسفة المشككين ولكن تأثره بوالدته المؤمنة قد حد من شكه وانصرافه لحياة اللهو والملذات الدنيوية وقاده إلى اعتناق المسيحية والالتحاق بالكنيسة.

انصرافه إلى الرهبنة والتبتّل

تعرّف أغوسطين على شلة من الأصدقاء المسيحيين الذين كان يرافقهم، ويذكر في كتابه الاعترافات مدى تأثيرهم عليه وكيف توصل معهم إلى الانصراف عن الدنيا ليلتحق بالكنيسة ويخدم فيها ككاهن ومن ثم كأسقف.

مصنفاته

أشهر كتبه هو الاعترافات Confessions وقد ألفه حوالى سنة 400م ومدينة الله City of God حوالى 413.

الاعترافات

يتحدث أغوسطين في هذا الكتاب عن تأثره الفلسفي بأفلوطين

والمانوية والفلسفة الرواقية وخاصة أفكار شيشرون. كما يتحدث عن صباه ومراحل تطوره النفسي التي مر بها قبل اعتناقه المسيحية ومنها السعي إلى الحقيقة والتفتيش عنها، ومرحلة الضياع وتبديد الذات والقهر والعذاب النفسي والتشرّد والابتعاد عن الله. يصور لنا أغوسطين في الاعترافات بشكل خاص الفراغ النفسي الذي كان يحيا فيه خلال فترة عدم اعتناقه المسيحية ويستذكر من ماضيه صورًا مظلمة مفعمة بالأسى والتأسف على صرف عمره وراء الملذات الفانية والعواطف الفارغة والاهتمامات الشخصية. ويعبر عن خجله من تلك الفترة في حياته. يقول إنه كان كمن يعيش في كهف مظلم أشبه بكهف أفلاطون مكبلًا بالسلاسل الحديدية التي ورثها من عصور الجهل واللاإيمان، موجهًا نظره ومشاعره نحو أمور لا أهمية لها. كان يتعالى على الآخرين ويهزأ منهم ويتكبّر عليهم، لا بل كان يتمادى في التكبّر عليهم واحتقارهم. كان يتصرف وكأنه محط أنظار الجميع والمتفوّق على الكل غير عابئ بمشاعرهم وآلامهم، ويتربص للإيقاع بهم. ولكن بعد أن آمن بالمسيح أصبح إنسانًا متواضعًا خدومًا، صارفًا نظره عن ملذات الدنيا، تائبًا إلى الله، محبًا للآخرين، يمد لهم يد المساعدة ويريد لهم الخير.

الحادثة التي أدت إلى هدايته

انصرف مع أصدقائه الذين آمنوا بالمسيح إلى خلوة في مكان ناءٍ. فأحس بألم شديد لأنه لم يستطع أن يشعر بما يشعرون به من فرح وغبطة. وعاتب نفسه عتابًا شديدًا على ترددها في قبول المسيح. كان يعرف جيدًا أن حياته اليومية قد أصبحت بلا معنى فهو يريد من كل قلبه أن يصبح مسيحيًا ويضحي بكل شيء ويهب وقته إلى المسيح والكنيسة. ولكن لا يمضي وقت قصير حتى يغير رأيه ويعدل عن انصرافه إلى الكنيسة. فيعود إلى حياته اليومية حيث تنتظره صديقته وابنه ويعيش الحياة التي كان يحياها سابقًا ويعلّم التعاليم الفلسفية التي اكتسبها. أما في ذلك اليوم فقد اشتدت آلامه وعصفت

به محدثة ثورة في نفسه. لقد تحولت المعركة معركة شخصية ولم تعد المسألة مسألة صراع مع الآخرين. تحول رحى المعركة إلى نفسه يطحنها. فصب جام غضبه عليها واتهم نفسه بالجبن والضعف. إذ لماذا كل هذا التردد؟ ولماذا هذا الضعف؟ ألا يستطيع أن يقرر شيئًا بنفسه؟ أهو مسلوب الإرادة لهذه الدرجة؟ ألا يستطيع أن يأخذ قرارًا وينفذه؟ من هو الذي يسيطر عليه؟ أليس هو سيد نفسه؟ كيف يستطيع الآخرون أن يسيطروا على إرادتهم بينما هو لا حول ولا قوة له؟ وبينما هو على تلك الحالة ترك رفاقه في البيت يمرحون وخرج يعصره الألم والحنق ولم يستطع أن يتمالك نفسه فانفجر بالبكاء. سمعه أحد أصدقائه وخرج ليرى ما الخبر ولكنه بعد أن علم أن الأمر لا يعدو سوى عذاب نفسي تركه لحاله وبقي يراقبه من بعيد. ويقول أغوسطين إنه سمع صوتًا عذبًا يغني بصوت أطفال ولم يكن هناك من أطفال في ذلك المكان النائي ثم سمع صوتًا يناديه بأن خذ الكتاب واقرأ، ويردد خذ الكتاب واقرأ. فذهب مسرعًا إلى داخل البيت وفتح الإنجيل المقدس وقرأ مقطعًا من رسالة بولس الرسول شعر بأن كلماتها موجهة إليه. فاهتدى لتوّه وكانت نقطة التحوّل في حياته. ومنذ تلك اللحظة بدأ حياة جديدة، تاركًا وراءه آراء ومعتقدات كان يعتقد بصحتها مثل الغنوصية والمانوية.

الغنوصية

الغنوصية هي مدرسة فلسفية دينية ضد الشكية. فالشكاك أو المشككون من أمثال بيرون (365 - 275ق.م.) اعتبروا أن الحكمة هي في الابتعاد عن إصدار الأحكام سلبًا أو إيجابًا والوقوف عند الظواهر فقط. فالأحاسيس موجودة ويعترف المشكك بأنه يرى الشيء الأبيض أو الأسود أو حرارة النار ويحسّها كذلك ولكنه يرفض إصدار الحكم بأن كذا وكذا هو أبيض أو أنه كنار تحرق وما إلى ذلك. وليس هناك ما هو شر بذاته أو خير بذاته، بل الشيء الواحد تارة ما يكون شرًا وتارة خيرًا. فالأشياء تتغير ويجب عدم الاعتماد عليها. فالطمأنينة هي في عدم الميل إلى الأشياء

والخوف منها. أما الغنوصية فهي على عكس ذلك تعتبر أن الإنسان يمكنه أن يعرف كل شيء ولا شيء يعصى عليه فهمه بما فيها الأمور الدينية والماورائية. فيلجأ الغنوصيون إلى تأويل ما استعصى إدراكه ويجدون حلًا لكل شيء بما فيها الاشياء التي يصعب تناولها من الآخرين. وعلى سبيل المثال يذكر أغوسطين أنه كان في أيام رسل المسيح في بلدة السامرة رجل اسمه سمعان يقوم بأعمال سحر تدهش الناس وكان عالمًا بفلسفة اليونانيين وأشعارهم. فلما تعرّف على الرسل، اخذ تعاليم المسيحية ودمجها مع فلسفته بغية التأثير على الناس، معتقدًا أن بامكانه أن يشتري كل شيء بالمال بما فيها موهبة الروح القدس من الرسل. واعتبر نفسه أنه الله وانه ابن لله في شخص المسيح. أما غيره من الغنوصيين فميزوا بين إله العهد القديم القاسي الجبار وإله العهد الجديد الوديع والمحب وما إلى ذلك. فلا تستعصي على اتباع هذه المدرسة أية فكرة، إذ يجدون طريقة لتأويلها واستخدامها للتأثير على الآخرين.

المانوية

ولد ماني بن فاتك في بابل سنة 215م. اتبع الزرادشتية التي تقول بمبدأ الثنائية في العالم بين إلَهين: أحدهما النور والآخر الظلمة أو الديجور. ولا ينتهي الصراع بينهما. تكون الغلبة لأحدهما فترة ما ثم تنتقل إلى الآخر لفترة أخرى تعود بعدها للأول وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية. ادّعى ماني النبوة وذهب إلى بلاد الهند ليعلّم هناك ومن ثم عاد إلى بلاد فارس لينشر دعوته ولكنه خرج في تعاليمه عن تعاليم زرادشت فأمر الملك بموته فأعدم سنة 272م. يقول ماني عن نفسه أنه رابع لثلاثة هم: المسيح وزرادشت وبوذا وكلهم صدروا عن حكمة واحدة ووعظوا فقط بينما هو وعظ وكتب. وادعى بأنه "الباراقليط" أو الروح القدس الذي وعد المسيح أن يرسله إلى تلاميذه. وادعى أيضًا بأنه خاتم المرسلين وكان يفسر الأناجيل كما يحلو له. وقال بأن المسيح لم يولد، بل جاء رجلًا كاملًا

ولم يمت على الصليب بل صلب مكانه الشيطان. وكان يرفض العهد القديم ويتهكم على أنبياء إسرائيل ويحمل على اليهود.

الإيمان

في حياته الجديدة التي اهتدى إليها أغوسطين كان أول عنصر وأهمها الإيمان بالمسيح إلهًا ومخلصًا. وكان هذا العنصر جديدًا في حياته ويختلف عن الطريق الذي اتبعه حتى ذلك الوقت لاكتشاف الحقيقة وكان طريقًا عقليًا فلسفيًا يتنقل فيه من فيلسوف إلى آخر. لقد أبلغته الفلسفة إلى معرفة وجود الله ولكنها لم تستطع أن تبلغ به إلى السعادة والعمل الفاضل. ولكنه الآن وبعد اعتناقه المسيحية بدأ يعرف الله ويفهم النفس الإنسانية والوسائل التي تقود الإنسان إلى السعادة الحقيقية.

يعرّف أغوسطين الإيمان على أنه ليس عاطفة عمياء دون محتوى، وإنما قوة لتقبّل عقلي لحقائق تفوق العقل. ولا يمكن إدراك هذه الحقائق عقليًا كباقي الحقائق العلمية، ولكن الإنسان يدركها بالإيمان المؤيد بشهادة الآخرين وبعلامات فارقة وعجائب. يستوثق العقل من تلك العلامات والشهادة ولكن بعد ذلك يبطل عمل الإيمان ليبتدئ عمل العقل. ويقول أغوسطين علينا أن نفكر كي نؤمن وأن نؤمن كي نفكر Believe in order to think and think in order to believe.

وبالتالي فالعقل والإيمان يكملان بعضهما البعض. وقبل اهتدائه إلى المسيحية كان يفكر فقط ولا يعير الإيمان أدنى اهتمام. أما الآن فأصبح يرى أهمية التفكير وأهمية الإيمان معًا، فالاثنان متلازمان ولا يثمر الواحد من دون الآخر. وبعد الإيمان يصبح العقل قادرًا على تفسير العقائد الدينية. وفي هذا المجال يسبق الإيمان العقل ويرسم معالم الطريق له ثم يأتي العقل ليدافع عن الإيمان.

اليقين - المعرفة اليقينية

لقد مرّ اغوسطين في عدة مراحل من الشك واليقين. فهو كان يسعى